الممالك الجرمانية في أوربا الغربية

أ.م.د. بشرى طايس عبد المؤمن
كلية التربية الجامعة المستنصرية

المقدمة:

وسط المتغيرات والصراعات التاريخية تسود حالة من الهجرة من مناطق الأزمات والصراعات للبحث عن مناطق أكثر أمان واستقرار، وأوربا كانت إحدى أهم مناطق الهجرة على مر التاريخ بسبب طبيعتها الجغرافية الجاذبة، ففي الأمس القريب هاجرت إلى أوربا جموع من الأجناس الشرقية من العرب ومن الأفارقة والأسيويين الهاربين من واقعهم الذي أنهكته الحروب والفساد والجوع، وباحثين عن وطنا كملاذ يعيد بناء إنسانيتهم التي ضاعت في أوطانهم الأصلية. ان هذه الهجرة بسلبياتها وايجابياتها سوف تفرض واقع جديد على أوربا، مثلما فرضت هجرات وغزوات لاقوام أخرى واقع اوربي مختلف عن سابقه.

ومن اهم جموع الهجرة التي تعرضت لها أوربا كانت في العصور القديمة، عندما اخذت السيول البربرية القادمة من الشرق والشمال تتدافع باتجاه أراضي الإمبراطورية الرومانية الشاسعة التي كانت تسيطر على معظم الأراضي الأوربية، وأيضا، أجزاء من آسيا، وشمال أفريقيا، ومن تلك السيول القبائل الجرمانية التي نزحت من التخوم الشمالية للإمبراطورية الرومانية في حركة هجرة دائمة خلال القرن الرابع، وإمام تدفق الجموع الآسيوية نحو أوربا من الشرق جعلت القبائل الجرمانية تتجه بحركة عكسية نحو الغرب الأوربي، وهيئ احتكاك قبائل الغوط الغربية الجرمانية بالإمبراطورية الرومانية في الغرب، إلى القبائل الجرمانية الأخرى التحرك نحو الإمبراطورية الرومانية التي باتت في حالة الضعف والانحلال، وتقييم تلك القبائل ممالكها في اراضي الامبراطورية.

وفي البحث الموسوم الممالك الجرمانية في أوربا الغربية، سنتطرق من خلاله إلى اصول القبائل الجرمانية وتركيبة مجتمعهم بشكل عام، والمناطق التي زحفوا لها لأهمية ذلك لانه لابد من خلال عملية الزحف ترك الجرمان اثر تاريخي هناك، والعوامل التي سمحت لجرمان باقامة تلك الممالك على انقاض الإمبراطورية الرومانية وصولا إلى تهاوي الممالك الجرمانية الشرقية بخلاف الجرمانية الغربية التي استمر كيانها اثره موجود في الخريطة الأوربية حتى العصور الحديثة. ان هذه الدراسة هدفها تقديم مادة تاريخية لمرحلة اساسية مر التاريخ الأوربي بها وصقل منها التركيبة والمفاهيم الأوربية في كافة النواحي في العهود التي تلت من بعد ذلك، وكان اساسها العنصر الجرماني.

وما فكرة اقامة اتحاد اوربي خلال القرن العشرين ما هو الا مشروع ألماني في اقامة امبراطورية جرمانية موحدة[١]، تعطي انطباع لسمو العنصر الجرماني على القارة الأوربية.

أصول الجرمان:

ان الشعوب الجرمانية، اوما تعرف أيضا بالتيوتونية[٢] والسويبية والغوطية، شكلت مجموعة عرقية أثنية هندو- أوربية من أصل شمالي أوروبي. واختلاف المؤرخون حول موطن الجرمان الاصلي فالبعض رأى انهم من المناطق المحيطة ببحر البلطيق، والبعض الاخر نسبهم إلى الآرية الأسيوية، أو احتمال انهم جاءوا من مناطق بحر قزوين. وانحدروا الى الجنوب واستوطنوا المناطق الممتدة بين نهر الراين غرباً ونهر الدنيبر شرقاً وبين بحري الشمال والبلطيق شمالًا وجبال الكربيات والالب جنوباً والقسم الاخر انحدر إلى المناطق الاسكندنافية.

وانقسمت القبائل الجرمانية إلى مجموعات منهم استقروا في المناطق الشمالية، والجرمان الشرقيون استوطنوا المناطق الشرقية بين جبال الألب وسواحل بحر الأسود، اما قبائل الجرمانيون الغربيون فاستوطنوا المناطق الممتدة بين جبال الالب ونهر الراين وكانت حد فصل عن بلاد الغال التابعة للامبراطورية الرومانية، من ما جعلهم على احتكاك بالرومان. اما تسميتهم بالجرمان فيرجح ان الغاليين هم اول من اطلقوا على الجرمان التسمية بلغتهم وتعني (الجيران) وتناقلها من بعدهم الرومان[٣].

المجتمع الجرماني:

أمتاز العنصر الجرماني بشعره الأحمر أو الاشقر، وعيونه الزرقاء، وجسمه الضخم القوي، عاش الجرماني في مجتمع بدائي قبلي، فسكنوا الجرمان في اكواخ مشيدة من كتل خشبية، وفي كهوف حفروها في باطن الارض، وكان الجرمان مولعون بالامور القتالية والصيد وتربية الحيوانات اكثر من الاهتمام بالزراعة التي كانت من اعمال نسائهم، وأيضا ميلهم إلى الشراب حتى الثمالة فكانت سببا وراء هزائمهم، ويبدو ان هذه الطابع توارثوها وبدت جزء من تركيبتهم. اما بالنسبة لديانتهم فكانت خليط من الاساطير وعبادة قوى الطبيعة كالكواكب والنجوم والاله عطارد الاله الرئيسي عندهم[٤].

اما تركيبة المجتمع الجرماني فكان أساسه وحدة الأسرة وللأب السلطة المطلقة على زوجته وأبنائه، وبلغ حقه حتى في سلب حياتهم، ومن رابطة الأسر بالدم كونت العشيرة، اما اراضي القبيلة فكانت ملكا لجميع افرادها، وان غنائهم توزع بين ورثتهم وأولادهم، ويوزع رئيس القبيلة الأراضي بين عشائر القبيلة في كل عام على التوالي حتى نفاذ احتياطهم، ليبحثون عن موارد أخرى، أي ان العشيرة تستثمر ارض جديدة غير التي استثمرتها في العام الماضي، اما

انتاج الارض فكان يوزع بينهم بالتساوي، وفق حق المساواة بين افراد القبيلة الواحدة، ولم يعرفوا نظام الملكية الخاصة، لتميل تلك القبائل إلى الحياة الحربية على الزراعية والاستقرار، وتنوعت اشكال القبائل الجرمانية منها كانت قبائل متفرقة، أو من مجموعة قبائل متشابهة في العادات والتقاليد واللغة مثل الفرنجة والسكسون وغيرهم. وقد تجتمع بعض القبائل تحت زعامة واحدة للقيام بعملية حربية معينة، وفي وقت السلم كان يتدبر زعمائهم شؤون إفراد القبيلة، وهذا فسر سبب عدم ارتباطهم بأرض، وعملية نزوحهم المستمرة بعيدا عن مناطقهم الأصلية[٥].

وبحدود القرن الاول الميلادي اخذ الجرمان الميل إلى الاستقرار والاهتمام بالأمور الزراعية اكثر من الاهتمام بالأمور القتالية بسبب تعاملهم واحتكاكهم بالرومان، حتى أخذت الصناعة تتسلل مجتمعهم فالحرف الصناعية كالمنسوجات الصوفية والكتانية، وصناعة الأدوات المعدنية والأواني الفخارية تنتشر في المجتمع الجرماني. ان هذا الاحتكاك والتعامل الجرماني مع الرومان خلق مسلك لإقامة كيان جرماني مختلف عن ذلك المجتمع البدائي، وان كان هذا المجتمع يمر بمرحلة ما قبل الدولة[٦].

وترتب على ذلك ظهور الفوارق الاجتماعية في المجتمع الجرماني، واخذ العبيد الجرمان في استثمار أراضي ووزعت عليهم من قبل أمرائهم مقابل ذلك إعطاء حصة من أنتاجهم إلى أسيادهم. وللحصول على الغنائم الحربية، اهتم الارستقراطيون الجرمان بالحروب وشن الغارات، ولم تعد المجالس القبلية صاحبة القرار في تلك الحروب بل من الأمراء والزعماء الجرمان أصحاب السطوة والنفوذ، ومنهم تكونت اسر حاكمة أشبه بالملوك، وللحفاظ على مراكزهم اعتمدوا مبدأ الوراثة في الحكم، ومن ذلك أخذت المنظومة الإقطاعية والطبقية الوراثية تتشكل في أوربا.

واثر أيضا في صقل المفاهيم والعادات والأساليب القتالية الجرمانية في داخل مفهوم المنظومة الأوربي على مر الزمن. وشكل العنصر الجرماني جزء أساسي في الهوية الأوربية، بفضل عمليات النزوح للقبائل الجرمانية إلى مناطق أوربا الغربية وانصهارهم مع سكانها من الجنس الروماني اللاتيني او الكلتي، وخلف خليط من الجنس الجرماني- اللاتيني شكل خريطة لدول أوربية سكانها من هذا الخليط، ولم يتكون ذلك الا بفعل علاقة الاحتكاك المباشر بين الرومان والجرمان[٧].

العلاقة بين القبائل الجرمانية والإمبراطورية الرومانية:

كان في سيطرة الإمبراطورية الرومانية على معظم اراضي القارة الأوربية إلى جانب ثقلها الحضاري والمتمدن قياسا إلى القبائل الجرمانية البدائية سبباً وراء علاقة غير متوازنة، اما عن بدايات العلاقة فتشير المصادر التاريخية إلى القرن الاول قبل الميلاد بعبور الرومان شمالا نحو مناطق نهر الدانوب بهدف التوسع واخضعوا بعض القبائل الجرمانية هناك لسلطانهم، مما اضطر القبائل الجرمانية تصارع الرومان من أجل الحفاظ على الهوية القبلية لقبائلهم، وغزا الجرمان في عهد الامبراطور الروماني أغسطس قيصر(٢٧ ق.م-١٤م) الأراضي الممتدة من الراين إلى جبال الأورال، ففي مناطق نهر الراين دحر الجرمان تحركات القوات الرومانية في اوائل القرن الاول الميلادي، ومن جانب اخر كانت هجمات القبائل السلافية والشرقية الأخرى المتزايدة على أراضي الجرمان في القرن الثاني الميلادي قد اضطرت الجرمان إلى تحرك بحثا عن مناطق ذات الخصوبة والمناخ المعتدل تكسوها الغابات تغنيهم عن مناطقهم الفقيرة ذات البرد والصقيع فاتجهوا الى اراضي الامبراطورية الرومانية الغنية وذات النظام المستقر المتحضر، حتى اقام الرومان سلسلة من الحصون العسكرية على الحدود الشمالية الموازية لنهر الدانوب لمنع غارات الجرمان[٨]، وما بين القرن الثالث الميلادي وأواخر القرن الرابع الميلادي تزايد توسع قبائل الهون في أراضي الجرمان فاضطر الالاف من الجرمان الزحف إلى الإمبراطورية الرومانية الغربية مستغلين الأزمات التي حلت فيها، بالمقابل امتلأت أراضيهم المهجورة بالسلاف. بينما مالت قبائل جرمانية أخرى إلى التحالف مع الرومان لمقارعة قبائل جرمانية أخرى، وجعل تلك القبائل في حركة دائمة، واقاموا في اراضي الإمبراطورية، ووصل الحال إلى سماح الأباطرة الرومان للجرمان الاقامة في اراضيهم بدعوة توفير الايدي العاملة للزراعة، أو لتفادي شرهم وخطرهم بحكم مرابطتهم حدود الإمبراطورية، وهناك منهم من إرسال أبنائه كرهان في الامبراطورية، حتى أصبحوا مزارعون وجندوا مرتزقة في الجيش الروماني، وجعل الكثير منهم يميل إلى الاستقرار في اراضي الإمبراطورية. فضلا عن العلاقة التجارية بين الجرمان وبين الرومان زادت من الاحتكاك بين الطرفين فكان يتاجر التجار الجرمان بالمواد الفخارية والمعدنية والملح مقابل الحصول على العملة الرومانية الذهبية والفضية. ان التغلغل الجرماني بكل أشكاله في المجتمع الروماني انعكس على إدارة الإمبراطورية الرومانية وهيئ بالتالي إلى سقوطها بيد الجرمان عام ٤٧٦[٩].

الممالك الجرمانية في أوربا الغربية :

لابد من أعطى تعريف الى شكل النظام الملكي الذي اقامته هذه الممالك في العهد الوسيط، ففي عهوده المبكرة لا يختلف النظام الملكي كثيرا عن النظام القبلي الجماعي قليل

التماسك، فلم يكن الملك الجرماني سيدا على قومه بل ممثلا لهم، واختصاص السلطة الملكية غير محدد فكان الملك حاكما وقائدا وقاضيا ورئيسا دينيا، وبمرور الزمن اخذت السلطة الملكية بالنمو والازدياد، وكان ارتباط تنظيم الدولة بالتنظيم الملكي حتى أصبح الملك صاحب السلطة في منح الافراد والجماعات الحماية الخاصة ومنح لهم مكانة مميزة، ثم غدت الوظيفة الملكية وراثية فيما بعد لكن بدون تقييد حتى تطور إلى مبدأ وراثة الابن ابيه في الحكم تدريجيا[١٠].

ووفق ذلك انقسمت الممالك الجرمانية إلى فرعين:

الممالك الجرمانية الشرقية تعود في نشأتها من مجموعة القبائل المتنقلة والغير مستقرة، أمنت بعد الوثنية بالمسيحية الاريوسية، التي تؤمن (بأن المسيح ليس صورة من صور الرب في ثالوث الأقداس وإنما مخلوق عادي كسائر البشر خلقه الرب) وهذا مخالفا للمعتقدات الأساسية للمسيحية الكاثوليكية المنتشرة في غرب أوربا، والمسيحية الارثودكسية المنتشرة في الشرق، واللتان كانتا منتشرتان في الإمبراطورية الرومانية، وكان ذلك السبب الجوهري وراء خسارة ممالكها في اوربا الغربية[١١].

اما ابرز قبائلها التي اقامت ممالكها على الاراضي الرومانية فهي:

١. مملكة الغوط الغربية في جنوب الغال:

خلال حقبة الهجرات عملت بعض القبائل الجرمانية على محاربة الإمبراطورية الرومانية ومحاولة اجتياح مناطق منها، وكان الغوط احدى تلك القبائل التي انحدر منها الغوط الغربيون والغوط الشرقيون، وغزا الغوط الغربيون أجزاء من الإمبراطورية الرومانية كشعب منفصل للمرة الأولى في عام ٢٦٨ واقتحموا منطقة البلقان. وعلى الرغم من المحاولات المتكررة من الرومان التخلص من الغوط الغربيين الا انهم حافظوا على سيطرتهم على مقاطعة داقيا الرومانية شمال الدانوب (في رومانيا حاليا) في عام ٢٧١، واعتنقوا المسيحية الاريوسية[١٢]. ومع تزايد خطر الهون[١٣] وشدته على مناطق أوربا، قد اضطر إلى تدافع حشود الغوط إلى الإمبراطورية الرومانية على طول حدود نهر الدانوب والراين هربا منهم في عهد إلامبراطور البيزنطي فالنز بين عامي (٣٦٤ -٣٧٨)، حتى انهم دخلوا في حروب طاحنة ضد قوة الهون المتصاعدة عام ٣٧٠، وحاول الغوط الغربيون والامبراطور بعقد تسوية معا، لان فالنز من جانبه اراد الاستفادة منهم في الدفاع عن حدود الامبراطورية من خطر الهون، ولتشغلهم بالزراعة، ولتدعيم المسيحية الاريوسية التي أمن فالنز والغوط بها، الا ان تأخر عقد التسوية بين الطرفين، مع اقتراب فصل الشتاء، وعبور الغوط للنهر الدانوب دون إذن

فالنز ثار غضبه، وفي عام ٣٧٦ بدأ نزوح الغوط الغربيون نحو الأراضي الرومانية بعد هجوم الهون على منطقتهم داشيا، ومنها كانت البداية في ايجاد الجرمان نفوذ لهم في الإمبراطورية، فسمح لهم من قبل قادة فالنز بالاستقرار بشرط أن يأتوا عزلا ويرسلوا ابنائهم إلى الإمبراطورية كرهائن لاثبات حسن نواياهم، لكن هذه الشروط لم يتابعها القادة، ولمصالحهم الشخصية قاموا ببيع الطعام للمستوطنين الغوط وبأسعار مرتفعة وسلبهم حيوانات الغوط، وكان وجود الغوط بإعداد كبيرة، ومعظمهم من المسيحيين في الامبراطورية سبب في أزمة كبيرة للإمبراطور، حيث أنه صرح بعدم مقدرته على توفير الغذاء والسكن الكافي لهم، لان روما كانت تعاني من المجاعة، ومع نفاد الصبر، مع الفساد والابتزاز من القادة الرومان للغوط، إلى اضطرار الغوط الثار من فالنز وزحفوا بأعداد كبيرة عبر البلقان إلى تراقيا، وقاموا بإعمال سلب ونهب وحرق وقتل في المناطق التي مروا بها، وفي ربيع ٣٧٨ زحفوا بقوة أكبر وكانت تساندهم فرقة من الهون والألان وتوغلوا إلى الشمال من أدرنة[١٤]، وهزموا الرومان في موقعة أدريانوبل في ٩ آب ٣٧٨، وبمقتل ثلثي الجيش الروماني ومن بينهم الإمبراطور فالنز[١٥]

وترتب على ذلك نتائج تاريخية مهمة على الامبراطورية الرومانية فلم يغادر البرابرة الجرمان اراضيها منذ ذلك الوقت، بل اقاموا ممالك فيها، ومنها اقامة الغوط الغربيون مملكة في جنوب أوربا الغربية لمدة قرنيين ونصف تقريبا. فعلى الرغم من دخول الغوط الغربيون في صلح مع الامبراطور الروماني ثيودوسيوس الأول(٣٧٨-٣٩٥)[١٦] الا ان الاستياء الغوطي من استمرار سياسة التعامل الروماني السيئة معهم، وفرض التزامات عسكرية عليهم، دفعتهم إلى نقض المعاهدة بعد وفاة ثيودوسيوس وقاموا بثورة ضد القسطنطنية عام ٣٩٥، وبعد تسوية عقدوها هناك، تراجعوا بقيادة زعيمهم ألاريك، وبسبب طموحاته بمنصب رفيع كقائد اعلى في الجيش الروماني، تحرك بجيشه نحو الغرب وهاجم مقدونيا واليونان للوصول إلى غايته، وتفاقم خطرهم على ايطاليا من جهات الادرياتيك، وحدثت المناوشات والصراعات بين الرومان والغوط الغربيين وكانت حدة هذه الصراعات تزداد حدة سنة تلو أخرى. وبعد اعدام الامبراطور هونوريوس لقائده الوندالي ستيليكو الذي علا شأنه بين الرومان بسبب نجحه في ايقاف هجمات الغوط، وقيام الرومان بمجزرة قتل فيها ٣٠ ألف من جنود الغوط الغربيين، أعلن ألاريك الحرب عليهم في عام ٤٠٨، وتوغل الغوط في إيطاليا حتى وصلوا روما وحاصروها ولشدة الحصار اضطر سكانها التفاوض لعقد هدنة مع الاريك الذي طلب تسليم كافة ثروتهم له، ونتيجة لرفض هونوريوس شروط ألاريك، قام الاخير باقتحام مدينة روما في ٢٤ آب ٤١٠، بعد ان غدت مهملة من الاباطرة الذين تحصنوا في عاصمتهم رافينا، وبذلك انزل الغوط

ضربتهم الثانية بالامبراطورية، ومثل سقوط روما صدمة للإمبراطورية العريقة. ولم يكن في نية الغوط من اقتحام روما السلب والنهب والتوسع بل الضغط على الامبراطور في الحصول على منصب له وقوت ووطن دائم لشعبه، وتجلى ذلك في أثناء الاقتحام توفي ألاريك فخلفه زوج أخته أتولف الذي وافق على طلب هونوريوس بمغادرة إيطاليا مقابل أن يعطى الغوط أراضي شبه الجزيرة الأيبيرية التي تقع جنوب الغربي من الغال وان يكون تابعا للامبراطورية مقابل اطلاق صراح شقيقة الامبراطور. وكانت تلك الاراضي وجنوب الغال حاميات نائية تابعة للإمبراطورية الرومانية تم سحب القوات الرومانية منها لتركيز الدفاع عن روما لمواجهة خطر الغوط، استغل الوندياليون هذا الفراغ وزحفوا اوائل القبائل الجرمانية، وبمساعدة حلفائهم من قبائل الألان والسوفي إلى تلك المناطق بين عامي (٤٠٧-٤٠٩)، ورأى بعض المؤرخين ان هدف الحكام الرومان الاستعانة بهم لتخلص من منافسيهم، ورأي اخر رجح استعانة الجنرالات في الجيش الروماني بالقبائل الجرمانية في سبيل تحقيق مطامع شخصية[١٧]. مع ذلك وبعد مسيرة الزحف الغوطي خلال اربع قرون من المناطق الشمالية الشرقية الاوربية ثم إلى البلقان والدانوب وايطاليا نجحوا بالضغط على الرومان لتحقيق كيان مستقر لهم فوفق الاتفاق الذي حصل بين الغوط والرومان في عام٤١٣ ومنح للغوط أمارة أكوتيانيا بعد ان استقر الوندال فيها لمدة من الزمن، وتحرك الغوط الغربيون باتجاه الغرب لطرد الوندال، وجعلوا من تولوز مركز لنفوذهم عام٤١٤، واتخذوا أكوتيانيا نواة لمملكتهم التي امتدت لمسافات واسعة خلف جبال البرانس، ونجح الغوط في التقدم واحتلال ناربونا الغالية، وتراكونا (اقصى شمال اسبانيا)، وعقدوا حلف اكبر مع الرومان والبرغند وقبائل أخرى لصد تقدم الهون في بلاد الغال، وهزم الحلف جيش ملك الهون آتيلا في معركة شالونChalon (في اقليم كتالونا) في عام ٤٥١، وبلغ الغوط ذروة قوتهم ووحدتهم في عهد ملكهم يوريك الذي اعلن اقامة مملكته في جنوب الغال المستقلة عن الإمبراطورية الرومانية التي بدورها لم تعترف بسلطانه الا كحليف تابع لها في عام ٤٧٥، وبذلك حقق غزو الاريك لايطاليا هدفه ولو بعد حين[١٨].

وعادت الخلافات حول السلطة الملكية الغوطية تبرز مرة اخرى ولتكون سببا لتصدع قوتهم أيضا، فلم يستطيع ملوك الغوط من وقف تلك الخلافات أو تحديات القوى الخارجية، الامر الذي عرض مملكتهم إلى الانحصار من قبل اعدائها، فقد قوض الفرنجة نفوذهم في مناطق الغال حتى جبال البرانس بعد خسارتهم اكوتيانيا لتقتصر سيطرتهم على اجزاء من اسبانيا بعد معركة فوييه في عام ٥٠٧، واحتل الفرنجة تولوز لذا اتخذ الغوط برشلونة عاصمة لهم،

حتى انهم انضموا إلى المملكة الغوط الشرقيين في عام ٥٠٨ لدرئ الخطر الفرنجي، وهذا زاد من عداء اتباع الكاثوليكية ضد الغوط الاريوسيين مستغلين صراع البيت الغوطي، وبمؤازرة رعية الغوط في الغال الذين غالبيتهم من الكاثوليك، وبجهود كنيسة روما وانصارها تم تقويض النفوذ الغوطي في أوربا، حتى نجحت قوات الإمبراطور البيزنطي جستنيان الاول(٥٢٧-٥٦٥) من القضاء على معاقل الغوط الغربيين في مدينة غرناطة وقسما كبيرا من أيبيريا في عام ٥٥٤، واخذ النبلاء الغوط الكاثوليك باستغلال ذلك في تدعيم مركزهم واضعاف السلطة الملكية الغوطية، وبدعم من كنيسة روما، إلى ان أعلن الملك الغوطي ريكارد الاول اعتناقه المذهب الكاثوليكي عام ٥٨٩، حتى تمكن الغوط من استعادة معظم اراضيهم من البيزنطيين في عام٦٢٤، مع ذلك استمر انحصار مملكة الغوط وهذه المرة امام الفتح الإسلامي لبلاد الأندلس بعدما قتل ملكهم لذريق رودريك في معركة وادي لكة في عام ٧١١ ، ومنها بدأت مدن الغوط تتهاوى مدينة بعد أخرى عام ٧١٨، ولم تبق إلا أجزاء صغيرة في أقصى الشمال في أيدي المسيحيين[١٩].

وبذلك لم يكتب لقبائل الغوط البربرية ان تتمدن سوى قرابة القرنين من الزمن، ساهم موقف كنيسة روما المضاد منها في تصدع كيانها.

٢. مملكة الالان والوندال في شمال افريقيا:

من القبائل الجرمانية الشرقية، اعتنقوا المسيحية الأريوسية، ونزحوا من مناطق الساحل البلطيقي إلى اوربا فقد نزل الوندال الاسدنجيين إلى بوهيميا اما الوندال السلينجيون فنزلوا في سيلزيا في القرن الاول، وفي مطلع القرن الخامس زحف الوندال من نهر تيسس إلى مناطق سبقهم الغوط إليها في غرب أوروبا على امتداد نهر الدانوب، ودخلوا حدود الإمبراطورية الرومانية بصفة معاهدين، واستغل الوندال وحلفائهم قبائل الالان انشغال الرومان بصد الخطر الغوطي الغربي لعبور الراين ولم يواجهوا في طريقهم أي صعوبة سوى عند وصولهم نهر الراين حيث اصطدموا بالفرنجة الذين كانوا يسيطرون على الأجزاء الشمالية من الغال التابعة للإمبراطورية الرومانية وقامت معركة بين الطرفين قتل من الوندال ٢٠ ألفا من بينهم ملكهم جوديجيزل، وبعد عدة موجهات استطاع الوندال والألان وبمساعدة قبائل السويفي من هزيمة الفرنجة في اواخر عام ٤٠٦، وعبروا الراين باتجاه الجنوب إلى اسبانيا، وعاثوا التخريب والفساد في الأراضي التي مروا بها، وحاولت روما عقد تسوية مؤقتة معهم عام ٤١٠ لدرء خطرهم ولمواجهة الغوط، وثم أدخلتهم الإمبراطورية الرومانية في صراع مع الغوط الغربيين في اسبانيا، لتشتيت قوة اعدائها من الغوط والوندال وغيرهم، ومن خلال منح

الغوط امارة أكوتيانيا بعد ان استقر الوندال فيها لمدة من الزمن(كما ورد ذكره)، ودفعت أيضا بقبائل السويفي حلفاء الوندال السابقين إلى محاربتهم في الساحل الشرقي الشمالي(البرتغال حاليا). لذا اضطر الوندال التوجه باتجاه شمال افريقيا مستغلين حدوث تمرد ضد الرومان هناك، وقام قائدهم جيزريك ببناء أسطول بحري، وفي عام ٤٢٩ عين ملكا عليكم وكان أعظم ملوكهم، اذ نجح بعبور مضيق جبل طارق واتجه شرقا إلى مناطق شمال افريقيا وسيطرة عليها، ولعجز الرومان عن مواجهة جيزريك منحوه تلك المناطق في عام ٤٣٥، واسس مملكته هناك، وفي عام ٤٣٩ سقطت قرطاج في يد الوندال[٢٠]. وزادت سطوة وقوة الوندال بعدما استولى جيزريك على جزر البليار وسردينيا وكورسيكا وصقلية جزر البحر المتوسط، وايضا اجزاء من ايطاليا وأدخلهم في ملكه، وفي عام ٤٥٥ حاول البابا ليو الاول اقناعهم بعدم اقتحام روما مثلما نجح في اقناع الهون قبلهم بذلك، الا انهم اقتحموا روما، ولبشاعة ما قاموا به من فساد، واسر الالاف من سكان روما واستخدامهم كعبيد وتخريب عظيم ولا سيما في الآثار الفنية والأدبية[٢١] دفع الأدبيات الأوربية إلى وصف لأي عمل تخريب وتدمير همجي اخر (بالوندالي). بالتالي ان استعانة الرومان بالقبائل الجرمانية ضد قبائل جرمانية اخرى منافسة، مع إهمال الأباطرة الشرقيين لروما، فسح المجال لأولئك البربر مهاجمة تلك المناطق ومنها روما[٢٢].

وكان الاختلاف العقائدي مابين الوندال الاريوسيين وروما الكاثوليكية و دوناتي قرطاج مصدرا لتوتر والصراع الدائم بينهما. وقيام أغلب ملوك الوندال باستثناء هلدريك باضطهاد الكاثوليك خلال حكمهم في شمال أفريقيا فقاموا بنفي كهنتهم وتدمير كنائسهم وحتى تحريم اعتناقهم للأريوسية دين الونداال.

وترك تهاوي القوة الرومانية في الغرب على يد الجرمان، اثر في الإمبراطور البيزنطي جستنيان الأول الذي قرر استعادة الإمبراطورية الرومانية في الغرب وانتزاعها من البرابرة الجرمان الذين عاثوا الفساد فيها، واستغل الخلافات في داخل البيت الوندالي ليوجه ضربته الاولى إلى الوندال في افريقيا لكي لا يعين الاسطول الوندالي الغوط الشرقيين ضد الجيوش الرومانية البيزنطية في ايطاليا، ونشبت حرب برية بحرية بين الوندال وبين القوات البيزنطية،انتهت بهزيمة الوندال، وإنهاء دولتهم في عام ٥٣٤ بعد ان حكمت قرابة القرن[٢٣].

٣. مملكة الغوط الشرقية:

قبائل جرمانية شرقية، تنحدر من المناطق الاسكندنافية، وفي القرن الأول الميلادي هاجرت قبائل الغوط جنوباً إلي منطقة فيستولا (بولندا)، ثم استوطنوا في أحد مناطق سكيثيا

(كرواتيا)، وأقاموا في مقاطعة داقيا بعد ان هجرها الرومان ليتفرغوا للدفاع عن اراضيهم، فتوسع الغوط إلى مولدوفا(بين اوكرانيا ورومانيا)، ولم تخلو تحركات الغوط في مناطق البلقان من اصطدامهم المتكرر مع القوات الرومانية التي تحرس تخوم الامبراطورية. وخضع الغوط الشرقيون إلى الهون، بعد عبور الهون نهر الفولغا من الشرق وهاجموا قبائل الغوط الشرقية في داشيا في عام ٣٧٠، ومن ثم انتحار ملك الغوط ارمانريخ اثر خسارته المعركة امام الهون[٢٤]. إلا أن الغوط الشرقيون استطاعوا التحرر من هيمنتهم بعد انكسار قوة الهون في معركة نيداو عام ٤٥٤، فكافأتهم حليفتهم الإمبراطورية الرومانية بإسكانهم مقاطعة بانونيا وبذلك وضعوا قدم نفوذا فيها. ولكن تحولت الصداقة إلى عداء بينهما بعد تعاظم امر الغوط الشرقيون في عهد ثيودوريك الكبير، الذي ولد بعد معركة نيداو، وتربى كرهينة في القسطنطينية، وهناك تعلم الحضارة الرومانية، ودرس في جامعات القسطنطينية، وبعد توليه حكم الغوط خلفا لوالده قام بمهاجمة اقاليم الإمبراطورية الرومانية البيزنطية باستمرار وتخريبها، لكن امبراطورها زينو اضطر إلى عقد حلف معه من اجل التخلص من حاكم إيطاليا الجرماني اودكر(ابن ادكون احد وزراء زعيم الهون اتيلا) الذي قضى على الامبراطورية الرومانية الغربية بخلعه امبراطورها روميليو اغطليوس، ابن الاثنا عشر عاما، في عاصمة الإمبراطورية رافينا عام ٤٧٦ وأضحت ايطاليا تحت حكمه، عنوة، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت سيادة ايطاليا محل صراع جرماني- بيزنطي، مع دخول البابوية في تحالفات للحفاظ على سيادتها الروحية كحامية للعالم المسيحي، وتحل محل الاباطرة الرومان في مسك امور الرعية في روما[٢٥].

وكان يهدف زينو من الحلف مع الغوط الشرقيين سحبهم من تخوم القسطنطينية، ومن اشاعة الخلافات بين الجرمان لإضعافهم كجزء من مخططاته، لإدراكه انهيار السلطة الرومانية في ايطاليا. واما ثيودوريك، الذي كان يتمتع بحنكة سياسية ودبلوماسية، فحرص على تثبيت سلطانه من خلال أقامة علاقات ودية مع ملوك البرغند، ومع الاتحاد القبلي الألماني، في الراين الاعلى، وأيضا الفرنجة بزواجه من أودوفليدا أخت ملك الفرنجة كلوفس عام ٤٩٢، كما أوقف غارات الوندال، واستطاع من أعداد خطة لهزيمة اودكر في عام ٤٩٣، واستولى ثيودوريك على إيطاليا وصقلية ودلماشيا والأراضي شمال من ايطاليا، بعد ان جعل من رافينا عاصمته، وخلال ذلك عمل على عقد تحالف مع البابا، وحاول كسب البابا والكنيسة الكاثوليكية والاعيان ومجلس الشيوخ في روما إلى صفه، ومنح الحرية الدينية على الرغم من ايمانه بالاريوسية، لضمان الحفاظ على شرعية سلطانه كحاكم على ايطاليا[٢٦].

كان هدف ثيودوريك من التحالفات مع الممالك غرب ايطاليا كسب تلك القوى إلى جانبه، وقيامه بدور الوسيط بينهم وبين الإمبراطورية البيزنطية ليكفل لنفسه زعامة الممالك الجرمانية، وايضا لكي يمنع تكوين فكرة استرداد ايطاليا من قبل الإمبراطورية البيزنطية، فقد عد نفسه ممثلا للامبراطورية الرومانية في الشرق ووريثا للامبراطورية في الغرب. حتى ان وحدة الغوط الشرقيين المتواجدين في إيطاليا مع الغوط الغربيين في أيبيريا تحت حكمه في مملكة واحدة في عام ٥٠٨ كانت تحت ذريعة حمايتهم من خطر هجمات الفرنجة، وما كان حماية العرق الغوطي الا بهدف توسيع سلطانه[٢٧]. ان طموحات ثيودوريك السلطوية التي اراد تحقيقها خلال سنوات حكمه (٥١١-٥٢٦) اصطدمت بسياسة الامبراطور البيزنطي جستنيان الاول الراغب في استعادة وحدة الإمبراطورية الرومانية، وأيضا بالكنيسة الكاثوليكية في روما المناهضة للمسيحية الاريوسية، عقيدة ثيودوريك، هذا الاختلاف المذهبي اثر على سياسته في اخر عهده، بل أيضا وراء انهيار قوة الغوط، فقد دخل في خلاف مع الكنيسة الرومانية وأتهمها بالتأمر مع جستنيان ضده، وتطور إلى خلاف اريوسي– كاثوليكي، وانعكس الخلاف على رعايا الجانبين، وعززه الامبراطور البيزنطي جستنيان بتحالف مع الفرنجة الكاثوليك ضد الغوط، وامتد العداء حتى بعد وفاة ثيودوريك في عام ٥٢٦[٢٨]، باستغلال جستنيان الصراعات على السلطة في داخل البيت الغوطي والتي أضعفت الوجود الغوطي في ايطاليا بين عامي (٥٣٥-٥٥٤)، وفعلا سقطت عاصمتهم رافينا بيد قوات جستنيان في عام ٥٤٠، وضرب معاقل الغوط في غرناطة وقسما كبيرا من أيبيريا في عام ٥٥٤[٢٩].

وعلل ذلك المؤرخ هيرويغ ولفرام إلى أن جهود ثيودوريك في محاولة إرضاء الثقافات اللاتينية والجرمانية تسببت في انهيار الهيمنة الغوطية. وايضا، في نهاية إيطاليا باعتبارها قلبا للعصور القديمة المتأخرة[٣٠]، والواقع حتى ان استعادة روما إلى حظيرة الإمبراطورية الرومانية لفترة قصيرة لم يعيد أمجاد الإمبراطورية الرومانية الموحدة، ولم يمنع من خسارة الكثير من المدن الايطالية، بعدما أثقلت الامبراطورية الضرائب والحروب، وتعرضها إلى تهديدات اقليمية منها الخطر اللومباردي، واستفحل امر الجرمان في جميع الاراضي الرومانية الغربية. وان نظيرتها في الشرق كانت تواجه الأخطار من عدة جهات، حتى اصبح من المتعسر أعادة ترميم الامبراطورية الرومانية بشكل موحد[٣١].

❖ المملكة اللومباردية:

قبائل الجرمانية الشرقية، نسبت تسميتهم إلى لحاهم الطويلة، انحدروا من المناطق الاسكندنافية إلى الاجزاء الشمالية في مناطق الألب في القرن الاول، وزحفوا إلى مناطق الدانوب في القرن السادس بسبب استعانة الجيش البيزنطي بهم لمقاتلة الغوط الشرقيين في ايطاليا في عام ٥٥٢، وبسبب المصاعب التي اعترضت الامبراطورية الرومانية الموحدة بعد وفاة جستنيان. وامام تزايد ضغط قبائل الافار من الشمال والشرق الاوربي في عام ٥٦٨، اخذت القبائل اللومباردية تهاجر باتجاه ايطاليا، مستغلين ضعف الرومان، ونجحوا في اقامة مملكتهم في وسط وشمال ايطاليا، وعاصمتهم بافيا (شمال ايطاليا) في عام ٥٧٢[٣٢]، امتد حكم الملوك اللومبارديون من (٥٦٨-٥٧٤)، ثم تولى امرائهم الحكم بعد ذلك بين عامي (٥٧٤-٥٨٤) وخلال تلك الاعوام اشتدت هجمات البيزنطية لاستعادة ايطاليا من حكم اللومباردي، واستطاعوا السيطرة على رافينا واجزاء اخرى في ايطاليا بمساعدة الفرنجة، وهذا دفع اللومبارديون إلى اعادة الحكم الملكي بين عامي (٥٨٤-٧١٣)، والتحالف مع امراء بافاريا الجرمان لمحاربة البيزنطيين ومحاولتهم الاستيلاء على روما في عام ٥٩٣، الامر الذي دفع البابا كريكوري الاول(٥٩٠- ٦٠٤) إلى تقديم اتاوة سنوية قدرت بخمسمائة باوند من الذهب إلى اللومبارديين مقابل الهدنة، بعد ان عجز البيزنطيين الدفاع عن روما، واظهر ذلك التصدع الذي اصابة الرومان وانحصار دولتهم في الشرق، مع محاولات كنيسة روما او البابوية الحفاظ على مركزها بادارة الامور في روما بصفتها الروحانية كحامية للكاثوليكية، إلى استمرار الصراع في ايطاليا بين اللومبارديين، والبيزنطيين، والبابوية خلال القرنيين السابع والثامن، وامام المحاولات اللومباردية في الاستيلاء على كل ايطاليا ومنها رافينا التي احتلوها من البيزنطيين عام ٧٥١، وبهدف الحد من أطماعهم أقدم البابا إلى التحالف مع الملوك الفرنجة الكاثوليك الذين حرصوا بدورهم على تعزيز سطوتهم وأطماعهم في اوربا باسترضاء كنيسة روما، تحت لقب (حماة الرومان)، وكانت هذه التحالفات لا تخلو من المساومات، وبعد المكاسب الفرنجة التي اضطرت اللومبارديون الاعتراف بتبعيتهم للفرنجة والتنازل عن رافينا بعد الهزيمة في سهل البو، منح الفرنجة اراضي اللومبارديين المفتوحة للبابا عام ٧٥٦، لكن التعنت اللومباردي بعدم تسليم جميع تلك الاراضي، سببا وراء انقضاض ملك الفرنجة شارلمان على النفوذ اللومباردي، واخضع أمرائهم لسلطته، واحتل مدن خاضعة لنفوذهم ومنها عاصمتهم بافيا في عام ٧٧٤، حتى قضائه على دوقيات الامراء اللومبارديين بشكل نهائي في عام٧٨٨، ومن ذلك اطلقت يد ملك الفرنجة على اوربا الغربية ومنها ايطاليا تحت لقب" حامي الرومان وملك الفرنجيين واللومبارديين"[٣٣].

لكن المميز في الامر ان الطابع الحضاري اللومباردي اللغوي ونظام الاداري المتحضر في نظام الحكم، وتشكيل مجلس استشاري من النبلاء لمساعدة الملك في ادارة البلاد، ومجلس الاحرار الذي اهتم بالقضايا القانونية، إلى جانب منح حرية العبادة في الحياة الايطالية ترك أثاره في الاقسام الشمالية الايطالية والتي لازالت موجودة ظاهر إلى الوقت الحاضر.

وان من الملاحظ على سياسة التحالفات انها فتحت المجال امام العديد من القبائل الجرمانية إلى دخول الاراضي الايطالية وحتى احتلال روما تارة على يد الغوط الغربيين، وتارة اخرى بيد الوندال، وثم اللومبارديين، حتى سمح الحلف البابوي- الفرنجي في ايجاد قوة جرمانية اخرى على الارض الايطالية، وبرضاها، مع سعي البابوية لتقوية نفوذها وسطوتها ومركزها كسلطة روحية بين العالم المسيحي الكاثوليكي، لتملئ الفراغ الذي خلفه سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية عندما ذهبت إلى تحالفات مع قوى جرمانية، وحل البابا محل الاباطرة الرومان حتى حمل لقب الحبر الاعظم لقب الاباطرة أنفسهم[٣٤].

٤. المملكة البرغندية:

من القبائل الجرمانية الشرقية، انحدروا من بحر البلطيق والاجزاء الشمالية من أوربا، ودخلوا سليزيا في عام ١٥٠، ومن ثم المناطق المتاخمة للإمبراطورية الرومانية في القرن الثالث، ووصلوا الماين في عام ٢٨٦، واستقر البعض منهم مناطق الراين، واخرون وصلوا إلى مناطق جبال الالب، وكانوا من اضعف الممالك الجرمانية الشرقية فإمام ضغط قبائل الهون الزاحفة نحو الغرب عبر البرغنديون الراين إلى الغال بعد موافقة السلطات الرومانية بالاقامة لهم كمعاهدين للإمبراطورية، ثم تحالفوا معها ضد قبائل الألمان في عام٣٦٩، كما تجاوزوا حدود الإمبراطورية الرومانية بسبب زحف الغوط الغربيون والوندال مناطقهم في القرن الخامس حتى سمحت السلطات الرومانية بقاء قسم منهم في الجزء الجنوب الشرقي من فرنسا وعلى امتداد منطقة بحيرة جنيف عام ٤٣٦، واستقروا في سافوي في عام٤٤٣، وخدموا في الجيش الروماني، وكانوا حلفاء للرومان والغوط الغربيين في صد زحف قوات الهون في شالون عام ٤٥١، وحرصوا على البقاء كحلفاء لروما حتى في عهود الضعف والانكسار التي عانتها الإمبراطورية الرومانية الغربية، وان لم يخلو الامر من تحقيق مكاسب لهم، فتوسعوا في مناطق ما بين الألب ونهر الرون واقاموا مملكتهم هناك وعاصمتها فيينا في عام ٤٩٨، وترك البرغنديون الوثنية واعتنقوا المسيحية الاريوسي، مع احترامهم لرغبة إنائهم في اعتناق مذاهب أخرى ترك اثر في اعتناقهم المذهب الكاثوليكي فيما بعد، بل ان الاميرة البرغندية الكاثوليكية زوجة ملك الفرنجة كلوفس وراء اعتناقه واتباعه من بعده

الكاثوليكية، مع ذلك فان كلوفس اجبر البرغنديون دفع الجزية له كرمز للتبعية في اوائل القرن السادس، لكن سرعان ما اكتسح الفرنجة–الميروفنجية المملكة البرغندية وضمها إلى مملكتهم في عام ٥٣٤[٣٥].

ووفق ما تقدم فان الممالك الشرقية استفادت من انحلال الإمبراطورية الرومانية الغربية في التغلغل واقامة ممالكهم في أراضيها، لكن هناك عاملان جوهريان مترابطان ادى إلى تفسخ هذه الممالك، الاول، اصطدامهم بالقوى الكاثوليكية وفي المقدمة كنيسة روما التي نصبت العداء للغوط أو الوندال أو اللومبارد لإخضاعهم ايطاليا بالقوة، غذاه الخلاف العقائدي بين كنيسة روما وتلك الممالك الذي عدت البابوية اتباع الاريوسية بالهرطقة، دفع تلك القوى السعي إلى تقويض اتباع الاريوسية، وبدعم من رعية تلك الممالك التي يدين غالبيتهم بالكاثوليكية لأنهم من ارض الرومان الكاثوليكية.

وبالنسبة إلى الممالك الجرمانية فأنها كانت النقيض التام للدولة، فهي اكتفت بربرة مناطق الإمبراطورية الرومانية لانه لم يكن لديها ما يحل محل الدولة الرومانية الأخذة بالانحطاط اثناء عمليات النزوح والاجتياح القبائل الجرمانية، وأنها كونت ممالك مؤسسة على الولاء لأشخاص لا لارض، ومجتمعها قبلوا شخصا معينا كملك، واذا توفر الاستقرار منحوا لعائلة معينة الحق الوراثي بالحكم لذا فان عدم ارتباط الممالك الجرمانية الشرقية بأرض لم يحقق ديمومتها الزمنية او المكانية[٣٦].

الممالك الجرمانية الغربية الفرع الأخر من القبائل الجرمانية، وتنقسم إلى مجموعة قبائل هم (كمبري، تيوتوني، شيروسكي، شاتي، ماركوماني، سويفي، جوتي، كوادي، ثورنجي، الالماني) الذين امنو بعد الوثنية بالمسيحية الكاثوليكية، كانوا اوفر حظا في اقامة ممالكهم على انقاض الإمبراطورية الرومانية، ونجحت في ان يولد منها كيانات اساسية ذات أهمية في ترتيب منظومة الحكم في أوربا الغربية فيما بعد، وهذه الممالك:

١. المملكة الفرنجية:

الفرنجة من ابرز مجموعة القبائل الجرمانية الغربية، الوثنية، شكلت مجموعات صغيرة ذات أصول مختلفة عرف باسم تحالف القبائل الجرمانية، شمل (سالي، سيكامبري، شاماوي، بروكتري، كاتي، كاتواري) في النصف الأول من القرن الثالث. حين استوطنوا المناطق الشمالية من بلاد الغال التابعة للامبراطورية الرومانية، مكونين فيها إمارة شبه مستقلة. وظهر الفرنجة في المصادر الرومانية كحلفاء وأعداء على السواء. فاستغلت مجموعة من الفرنجة ضعف الإمبراطورية الرومانية في عام ٢٥٠، وغزو أراضيها، وسيطروا على نهر شلت وأغاروا على

القنال قاطعين المواصلات نحو انكلترا حتى أعادت القوات الرومانية السلام إلى المنطقة، ولكنها لم تطرد الفرنجة، الذين استمروا ليكونوا قراصنة مهابين على طول شواطئ، وتوغلوا في اراضي الإمبراطورية حتى طرخونة الاسبانية الحالية، وبقوا بهذه المنطقة نحو عقد من الزمان إلى ان طردتهم القوات الرومانية من أراضيها[٣٧].

وفي القرن الرابع وسع الفرنجة نفوذهم على حساب الإمبراطورية ليشمل الاراضي المنخفضة، وجنوب الراين، والشمال الغالي في نهاية القرن الخامس. فقد اقامت سلالة قبائل السالي الفرنجية[٣٨]، الامارة الفرنجية في منطقة الراين، وليس هناك معلومات دقيقة عن تاريخ نشأت هذه الامارة القديمة. ولاحتكاكهم المستمر بحدود الرومان وتحالفهم مع الرومان في صد القبائل الوندالية والالمانية منحهم الامبراطور الروماني جوليان المرتد (٣٦٠-٣٦٣) صفة الحليف في عام ٣٥٨، ان دخول الفرنجة وغيرهم من القبائل الجرمانية كحلفاء للامبراطورية الرومانية ثم منحتهم اراضي مقابل المساعدة العسكرية بمثابة الخطوات الاولى التي وضعت مكانة لهم في الإمبراطورية، فتح الحلف للفرنجة الاستقرار في مناطق الراين الاسفل في منطقة توسكاندريا (ما بين هولندا وبلجيكا وفرنسا حاليا). مع سماح الرومان لهم بتعمير الأراضي قليلة السكان، حتى غدت مناطق الغال الشمالية تحت سيطرتهم، واستعمر الفرنجة الساليون مع شعوب أخرى وبشكل رئيسي من العرق الفرنجي الأجزاء الشمالية الغالية، ووصلوا إلى شمال مدينة باريس الرومانية، وأنتجت السلالة الميروفنجية في القرن الخامس، وكان اول من اتخذ لقب ملك الفرنجة الساليين هو كلوديون الملتحي، الذي توغل في بلاد الغال بعد استيلائه على كولون عام ٤٣١، وجعل من تورني عاصمته، بعد انتصاراته على القوات الرومانية، وورث المملكة ابنه ميروفنج (ابن البحر) الذي نسبت إليه السلالة الميروفنجية، واقام تحالف مع الرومان لاجل مقاومة خطر الهون[٣٩].

وكان حفيده كلوفس الأول (٤٦٦- ٥١١) من أقوى ملوكهم الذي حكم في الاول مملكة اوستراسيا (في الجزء الشمالي الشرقي من الغال)، وعد المؤسس لكلا من فرنسا وسلالة الميروفنجية التي حكمت الفرنجة لقرنين، وأول ملوكها من استطاع توحيد جميع القبائل الفرنجية تحت حاكم واحد، فقد اسس كلوفس مملكته مستغلا سقوط عرش روما بيد المرتزق الجرماني اودكر في عام ٤٧٦ وما خلفه من فوضى وتفكك في انحاء البلاد الرومانية، مما مكن كلوفس في التوسع والسيطرة على نهر السين واللور وباريس التابعة للرومان بعد انتصاره عليهم في معركة سواسون عام ٤٨٦، ومنذ هذا التاريخ بدا عهد الاسرة الميروفنجية الممتد بين عامي(٤٨٦-٧٥١)[٤٠].

وحرص بعد انتصاره على الرومان الى تثبيت مملكته، ويبدو ان سعي كل من كلوفس وملك الغوط الشرقيين ثيودوريك تأمين خطر الاخر، دفعهما الى أقامة تحالف في عام ٤٩٣ بعد أقامة علاقة مصاهرة بزواج اخته من ثيودوريك، كما حرص كلوفس التقرب من الرهبان الكاثوليك لإدراكه مكانتهم في ارض الرومان، ونذر كلوفس، الوثني، المتزوج من الاميرة البرغندية الكاثوليكية كلوتيلدا، للمسيح انه واتباعه سوف يعتنقون المسيحية الكاثوليكية اذا كتب النصر له في معركته ضد قبائل الالمان (الذين استوطنوا الضفة اليسرى من نهر الراين) بذريعة نصرته قبائل الفرنجة البريين وفعلا تحقق ذلك في معركة تولبيك في عام ٤٩٦ وإخضاعهم لسلطانه، وبمساعدة الرهبان، واختاره الفرنجة البريون ملكا عليهم، ولاجل ذلك اعتنق كلوفس الكاثوليكية الرومانية، وبهذا فان المسيحية مرة اخر تدعم ملك وثني في حربه كما دعمت الامبراطور الروماني الوثني قسطنطين الكبير وتكون نصرتها له سببا في اعتناق قومه المسيحية. وأصبح اول ملك جرماني يعتنق الكاثوليكية خلاف للقبائل الجرمانية المتنصرة على المذهب الاريوسية في جهات اوربا الغربية[٤١].

وكان لهذا أهمية بالغة في المراحل التالية لتاريخ فرنسا وأوروبا الغربية، فقد استخدمت السياسة التوسعية الفرنسية من ذلك الوقت الغطاء الديني كغطاء لسياستها التوسعية، ودعم لسلطان حكامها على مر التاريخ، بوصف فرنسا (حامية المسيحية، والكاثوليكية)، وكان اكتساح كلوفس المملكة البرغندية وإجبارها دفع الجزية عام ٥٠٠ اول تلك الخطوات، وعمل على كسب ود كنيسة روما وتجلى بشكل فعال في حروبه ضد الغوط الغربيين في جنوب غرب بلاد الغال، وتحت شعار محاربة الهرطقة الاريوسية إلى ان هزموهم وحصروا مملكتهم في مناطق اسبانيا في عام ٥٠٧، بالمقابل وسع كلوفس مملكته التي امتدت على ضفتي الراين وكل اراضي الغال، واتخذ من باريس عاصمة لمملكته عام ٥٠٨، حتى ان الامبراطور البيزنطي منح لقب(القنصل) لكلوفس عام ٥٠٩[٤٢].

وكلوفس سار على غرار ملوك الجرمان في تأسيس ممالكهم في اراضي الإمبراطورية، حكمت كمقاطعات رومانية وليست ممالك مستقلة، ولو بشكل اسمي.

انعكست انتصاراته وعلاقته الحسنة مع البابوية، على سعيه في بناء مملكة ترتقي لمستوى يليق برفعتها، فكان عهده بداية امتزاج القيم البدائية الجرمانية مع القيم الحضارية الرومانية الشائعة في بلاد الغال من خلال اصدار العملة، والتنظيم الاداري، والقانوني، وهو من وضع القانون السالي Salic Law (٥٠٧-٥١١) الذي عد التشريع الأساسي لمملكة الفرنجية عبر التاريخ، وانحدر من كلوفس ثمانية عشر ملكا من الاسرة الميروفنجية بين عامي (٥١١-

٧٥٢)،وغزا الميروفنجية اراضي الراين، واسبانيا، وايطاليا، وسار خلفائهم من الاسرة الكارولنجية على نفس النهج تحت سياسة فرنجية قائمة على الثبات والتوسع وبرضا ومشورة كنيسة روما لاجل دعم نفوذهم في مملكتهم واوربا الغربية[٤٣].

ان ديمومة الفرنجة في العالم الاوربي الغربي كان يعود جزء منه إلى الحلف البابوي-الفرنجي تحت المظلة الكاثوليكية الذي صنع عامل قوة لمواجهة أي قوة منافسة لهم، وبذلك استولى الفرنجة على اقاليم مسيحية نظمها رومانية، فورثوا ما يملكه الامبراطور الروماني. ويبدو انهم استفادوا من تجارب الامم السابقة ممن نصبت البابوية العداء ضدهم، وهذا منح الفرنجة الزعامة وصاحبة الراي في العالم المسيحي، وفي أطلاق أيدهم في ايطاليا تحت مسمى "حماية البابوية"[٤٤].

والجزء الاخر الذي ميز الفرنجة عن غيرهم من الجرمان بانهم توسعوا مع حفاظهم على مناطقهم الاصلية، وثقافتهم الجرمانية، بخلاف بقية الممالك الجرمانية الاخرى الذين استقروا في مناطق بعيدة عن مناطقهم الأصلية، وانصهروا في المجتمع الروماني، وشتت هويتهم الأصلية.

٢. مملكة الانكلوسكسون:

كانت بداية الوجود الروماني في جزر البريطانية منذ تعرضها إلى هجمات الجيوش الرومانية إلى عام ٥٥ ق. م لمنع القبائل الكلتية المستقرة هناك من دعم قبائلها في بلاد الغال، وعادت القوات الرومانية لاخضاع القبائل الكلتية مرة أخرى في عام ١٤٣، ومن ثم وضع انكلترا تحت سيطرتها ماعدا الاجزاء الشمالية حتى عام ٤٠٧ مع اشتداد خطر الغوط الغربيين على الإمبراطورية الرومانية واضطرارها سحب حاميتها من هناك لدفاع على ايطاليا عام ٤٤٢[٤٥].

اما قبائل الانكلو والسكسون والجوت، هم اتحاد مجموعة القبائل الجرمانية الغربية، الوثنية، التي تربطها اللغة والعادات المشتركة، توافدت من مناطق جنوب البلطيق(من شمال المانيا والدانمارك وهولندا) باتجاه الجزر البريطانية بهدف الاستقرار فلا تعرف المصادر السبب وراء توافدهم إلى هناك، قد يكون السبب تعرض أراضيهم في شمال اوربا إلى الفيضان بشكل مستمر، وكان من الصعب أن تنمو المحاصيل، لذا بحثوا عن أماكن جديدة للاستقرار والزراعة. بينما رأت مصادر اخرى أن المحاربين السكسونين جاءوا إلى انكلترا في عام ٤١٠ بعد انسحاب القوات الرومانية منها، ولم يكن لسكان انكلترا جيش قوي يدافع عنهم، فاستغلت تلك القبائل الاوضاع هناك

لاستعمارهم، ونهجت القسوة في تثبيت وجودها هناك مما اضطر الكلت إلى الهجرة إلى الاقسام الشمالية من الجزر البريطانية[٤٦].

وسيطرت قبائل الأنكلوسكسون على أغلب انكلترا، لكنهم لم يفتحوا اسكتلندا وويلز وكورنوال. قسموا البلاد إلى ممالك، كان لكل منها عائلته المالكة الخاصة. سيطرت الممالك الأقوى على الممالك الأضعف في أغلب الأحيان، وتنصروا الانكلوسكسون الكاثوليكية وبشكل سريع بجهود كنيسة روما التبشرية في عام ٥٩٧، وبالنتيجة خرجت انكلترا من عزلتها وغدت اكثر ارتباط بمؤثرات الحضارة الأوربية الغربية. ومع حلول عام ٦٠٠ كانت الممالك الأنكلوسكسونية الرئيسية السبع في انكلترا هي: كنت من قبائل الجوت فكانت مملكتهم في الجنوب الشرقي لانكلترا، ووسكس، واسكس، وسوسكس(من قبائل السكسون) في الجنوب والجنوب الشرقي، اما (من قبائل الانكلز) فكانت مملكة نورث امبريا في الشمال، ومملكة ميرسيا في الغرب، ومملكة انكليا الشرقية في الشرق، وفي صراع متأجج على مدى قرن ونصف إلى ان استطاعت مملكة وسكس من اخضاع الممالك السبع لسيطرتها في مملكة موحدة في القرن التاسع، استمر إلى الفتح النورماندي لانكلترا في عام ١٠٦٦ [٤٧].

ان ثبات الممالك الغربية كان عامل اساس في جعل الطابع الجرماني يطغي على المناطق الوجود الفرنجية والسكسونية أي الاقسام الغربية الأوربية مع احتفاظ الاجزاء الجنوبية والجنوبية الغربي الأوربية بالطابع اللاتيني الروماني في العقود التالية.

خارطة توضح الممالك الجرمانية في أوربا الغربية

الاستنتاجات

* ان الغزو الجرماني لأراضي الرومان اثر بشكل كبير على التاريخ الأوربي في ظهور مفاهيم وتنظيم سياسي ومجتمعي مختلف عن سابقه، فالمجتمع الجرماني بدائي قائم على الولاء لشخص بحكم انقسامه إلى مجموعات قبلية متناحرة فيما بينها، وما أقامة الممالك الجرمانية في أوربا الغربية مع انتشار المسيحية في العهد الوسيط الا على انقاض الإمبراطورية الرومانية المنحلة، قد افرز تشكيل مزيج مسيحي- جرماني للحضارة الأوربية.

* وان الدافع الديني اثبت قوته، وهذا لا يخالف حقيقة امتلاك الكنيسة والامبراطورية الرومانية مكانة مميزة لدى الجرمان، فالجرمان الشرقيون لم يدخلوا في صدام مباشر في محاربة الكاثوليكية رغم ايمانهم بالاريوسية، وكثيرا ما تحالفوا معها، وذات الامر انطبق على علاقة الجرمان بالإمبراطورية الرومانية بحرص ملوكهم على ان يكونوا حماة الإمبراطورية الرومانية، حتى ان امتزاج القيم البدائية الجرمانية مع القيم الحضارية الرومانية الشائعة في الادارة والمالية والقانونية وتحديدا في ممالك الغوط الشرقية واللومباردية والفرنجة الا مثل ذلك اعتراف جرماني برقي الحضاري الروماني عنهم.

* وبصفة عامة فان الممالك الجرمانية كانت تقوم بالاسس على الولاء لسلطان شخص لا للقبيلة وهذا جعلها عرضة للانقسام والضعف. وساهم مع ذلك أيضا عدم الولاء للارض التي اقام الجرمان الشرقيون ممالكهم فيها مما مكن اعدائهم من تقويض سلطانهم.

* بينما كانت كنيسة روما تسعى الحفاظ على وحدتها، والتمسك بعقيدتها، عملت في مواجهة الغير الكاثوليك بدون هوادة، ومنحت نفسها الزعامة على المسحيين كافة، واستقلالها عن السلطة السياسية في روما فلم تتدخل في شؤون الاباطرة الرومان او في الحد من الاجتاح الجرماني لروما، لذلك اصبحت بمكانة مميزة حرصت القوى الاخرى المتنافسة في اوربا على استرضائها. وما يؤكد ذلك سيطرة كنيسة روما على المشهد التاريخي في الحياة الاوربية في العصور الوسطى، ودورها في تقويض الممالك الجرمانية الشرقية الاريوسية خلاف الجرمانية الكاثوليكية التي دعمتهم سلطتهم.

الهوامش:

[١]- عزت السيد احمد، النظام الاقتصادي العالمي الجديد (من حرب الأعصاب إلى حرب الاقتصاد)، دمشق،١٩٩٣، ص٥٧.

[٢]- استخدم علماء لاتينيون في القرن العاشر وصف التيوتون عند الإشارة إلى شرق فرنسا، وكانت بالمحلية تدل على "ريجنوم تيوتونيكوم" لتلك المنطقة وجميع سكانها اللاحقين. لا يزال المتحدثون باللغة الإنكليزية يستخدمون كلمة تيوتوني لوصف الشعوب الجرمانية. وتاريخيا ، كانت التيوتون مجرد قبيلة واحدة محددة، وربما لم تتحدث حتى اللغة الجرمانية. وافترض بعض العلماء أن اللغة التيوتونية الأصلية ربما كانت شكلاً من أشكال اللغة السلتيك. اما الرومان فكانوا يعدونهم في نفس فئة القبائل الناطقة باللغة الجرمانية التي شنت هجوم مخيف ضد الرومان خلال القرن الثاني قبل الميلاد من قبائل البرابرة المستوطنين في شمال اوربا، وفي وصف الشعوب الجرمانية فيما بعد.

Encyclopedia of European Peoples, Vol.4, U.S.A,2006,pp.797-798.

[٣]- نور الدين حاطوم، تاريخ اوربا في العصر الوسيط، ج١، لبنان، ١٩٩٢، ص١٧.

[٤]- احمد غانم حافظ، الامبراطورية الرومانية من النشوء الى الانهيار، الإسكندرية، ٢٠٠٧، ص١٥١.

[٥]- نور الدين حاطوم، المصدر السابق، ص١٧-١٨.

[٦]- ينظر إلى: نور الدين حاطوم، تاريخ اوربا في العصر الوسيط، ج٢، لبنان، ١٩٩٣.

[٧]- جوزيف شترايير، الاصول الوسيط للدولة الحديثة، ترجمة محمد عيتاني، لبنان،١٩٨٢، ص١٦.

[٨]- احمد غانم حافظ، المصدر السابق، ص١٥٥.

[٩]- تشير بعض المصادر التاريخية إلى اسكن قسطنطين الكبير ٣٠٠ الف من الجرمان في الإمبراطورية الرومانية كمعمرين ينظر إلى:

Robinson An Introduction to the History of Western Europe, Revised and Enlarged by J. Shattwell, Vol. I, Bosten,1946,P.23.

[١٠]- محمود سعيد عمران، حضارة أوربا في العصور الوسطى، مصر، د.ت، ص ٣٥.

[١١]- لتعرف اكثر عن موقف الكنيسة الكاثوليكية من الاريوسية ينظر إلى:

ادوارد جيبون، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ترجمة محمد ابو درة، ط٢، مصر،١٩٩٧، ص ٤٣٨.

[١٢]- اعتنق الغوط المسيحية الاريوسية قبل انعقاد مؤتمر نيقيا عام ٣٢٥، وثم لقنهم الراهب اوليفلاس (٣١١- ٣٦١) التعاليم المسيحية على المذهب الاريوسية في عام ٣٤١.

عبد القادر احمد اليوسف، العصور الوسطى الاوربية(٤٧٦-١٥٠٠)، بيروت، ١٩٧٦، ص ٤٣.

[١٣] - قبائل تركية مغولية، رعوية، بدائية، برعوا بركوب الخيل والقتال على ظهورها، معيشتهم في المناطق الجافة وبحثهم عن المراعي اكسبهم قدرة تحمل المشاقة والجوع والعطش، وسكنوا بحيرة بلكاش والاورال في آسيا الوسطى، وهربا من الهجمات الصينية زحفوا إلى السهول الروسية غربا في القرن الثالث الميلادي، وخضعوا قبائل مناطق الفولغا والدون والقفقاس.

[١٤] - تقع الآن في تركيا، بالقرب من الحدود مع اليونان وبلغاريا في مقاطعة تراقيا.

[١٥] - رجح سبب الهزيمة على تقديرات فالنز الخاطئة بأن عدد وعدة جيش العدو ضعيفة وقليلة وأنهم لا يزيدون عن ١٠ آلاف مقاتل، واعتماد الرومان فرق المشاة في مواجهة فرق الخيالة السريعة الحركة من الغوط، وبالإضافة لحر شهر اب أشعل الغوط الغربيون النيران في أرض المعركة وعملوا على حصار الجيش الروماني في وسط ميدان المعركة، وهذا اظهر عقم اساليب الرومان العسكرية القديمة.

Katz, the Decline of Rome and Rise of Medfieval Europe, Cornell,1963,P.89.

[١٦] - قائد روماني، من اصل اسباني، دعاه الامبراطور الروماني في الغرب غراتيان لكي يكون امبراطور على الشرق الروماني في عام ٣٧٩، واصبح امبراطور على كامل الإمبراطورية الرومانية في عام ٣٩٢، ومن عهده بدأ حكم الاسرة الثيوديوسيوسية (٣٧٩-٤٥٧).

[١٧] - عبد القادر احمد اليوسف، المصدر السابق، ص٤٦.

[١٨] - عائشة سعيد ابو الجدايل، الامراة والسلطة في العصور الوسطى، القاهرة ،٢٠٠٢، ص٢٧.

[١٩] - سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ أوربا في العصور الوسطى، بيروت، ١٩٧٦، ص٧٠.

[٢٠] - المصدر نفسه، ص٧٢.

[٢١] - من جملة ما نهب الوندال غنائم معبد القدس التي جلبت إلى روما في عهد الإمبراطور الروماني تيتوس

[٢٢] - احمد غانم حافظ، المصدر السابق، ص١٦٦.

[٢٣] - نورمان بينز، الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد، القاهرة،١٩٥٠، ص٤٨.

[٢٤] - عبد القادر احمد اليوسف، المصدر السابق، ص٤٣.

[٢٥] - في عام ٤٤٥ منح الامبراطور الروماني فالنز الثالث(٤٢٣-٤٥٥) إلى بابا كنيسة روما السيادة على كل الكنائس المسيحية في العالم، وبعد انهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية عام ٤٧٦، أصبح البابا صاحب السلطة العليا في روما، وعلى الرغم من اشراف الامبراطور البيزنطي على تنصيبهم حتى القرن السابع مستغلين البعد عن الاباطرة، فضلا عن دورهم بان حالوا بين الجرمان والمدنية الرومانية. ينظر إلى:
احمد عطية عجيبة، البابوية وسيطرتها على الفكر السياسي الأوربي في العصور الوسطى، مصر، ١٩٩١، ص١٠-١٧.

[٢٦] - رافت عبد الحميد، الفكر السياسي الأوربي في العصور الوسطى، القاهرة، ٢٠٠١، ص ٣٥.

[٢٧] - عائشة سعيد ابو الجدايل، المصدر السابق، ص٣٥.

[٢٨] - دفن ثيودوريك في رافينا عاصمة مملكته في ضريح عظيم لايزال موجود حتى الآن

[٢٩] - نورمان بينز، المصدر السابق، ص٥٠.

[30] - Herwig Wolfram, History of the Goths, University of California Press - Los Angeles, 1988, P.35.

[٣١] - تعرضت الإمبراطورية البيزنطية إلى الخطر الفارسي من الشرق، وتدفق هجمات الاسلافية من الافار والصقالبة على مناطق الدانوب والغرب الاوربي، مع تفشي مرض الطاعون المدمر في الإمبراطورية في عام ٥٤٧ ادى إلى العجز تكوين قوة عسكرية لمواجهة الاخطار، فضلا عن الاعباء المالية بسبب الحروب والاعمار في عهد جستنيان، مع صعوبة التفاهم بين الشرق والغرب بسبب الخلافات المذهبية، وعلى الرغم من انتصارات جستنيان الأول في شمال أفريقيا وإيطاليا في القرن السادس، ولكن بعد وفاته تقلصت الممتلكات البيزنطية في إيطاليا بشكل كبير من قبل اللومبارديين في الجهات الشرقية الايطالية، وتعرض الرومان للتهديد القوى الاسلامية بعد الفتح الاسلامي للأراضي البيزنطية في سوريا وأرمينيا ومصر، واصبحوا يهددون القسطنطنية بشكل مباشر، في القرن السابع، استولى العرب أيضا على جنوب إيطاليا وصقلية. مع تهديد السلافيين العمق البلقاني.

نورمان بينز، المصدر السابق، ص٥٠-٥١

[٣٢] - نورمان بينز، المصدر السابق، ص٥١؛ نور الدين حاطوم، المصدر السابق، ص٢٨.

[٣٣] - المصدر نفسه ، ص٥٤.

[٣٤] - احمد عطية عجيبة، المصدر السابق، ص١٠.

[٣٥] - احمد غانم حافظ، المصدر السابق، ص ١٥٧.

[٣٦] - جوزيف شترابر، المصدر السابق، ص١٦.

[٣٧] - احمد غانم حافظ، المصدر السابق، ص١٤٥-١٦٦.

[٣٨] - تعود تسمية السالي إلى نهر سالا والذي يعرف حاليا بنهر اجسل في فرنسا.

[٣٩] - عبد القادر احمد اليوسف، المصدر السابق، ص٧٦.

[٤٠] - محمود سعيد عمران، المصدر السابق، ص١٩.

[٤١] - سعيد عبد الفتاح عاشور، المصدر السابق، ص٨٠-٨٢.

[٤٢] - نور الدين حاطوم، المصدر السابق، ص٧٩.

[٤٣] - عبد القادر احمد اليوسف، المصدر السابق، ص٧٩-٨٠.

[٤٤] - اتسمت الحروب الفرنجية بالطابع الديني منذ القضاء على النفوذ اللومباردي في ايطاليا امتدادا إلى حروبهم ضد القبائل الجرمانية الوثنية وتنصيرها في شمال غرب أوربا والقضاء على الافار في اقاليم الدانوب وتنصير تلك الاقاليم، إلى جانب اقامة الثغور لمنع التوسع الاسلامي في بلاد الغال في اواخر القرن الثامن.

محمود سعيد عمران، المصدر السابق، ص١٩-٣٧.

[٤٥]- عبد القادر احمد اليوسف، المصدر السابق، ص١٦٦.

[٤٦]- نور الدين حاطوم، المصدر السابق، ص٨٢.

[٤٧]- عباس حسن الجبوري، انكلترا في عهد الانكلوسكسون، www.acadimia.edu .

Summary:

Amidst historical changes and conflicts, a state of migration prevails from crisis and conflict areas in search of safer and more stable areas, and Europe has been one of the most important migration areas throughout history due to its attractive geographical nature. Their reality, which has been exhausted by wars, corruption and hunger, are searching for a homeland as a refuge to rebuild their humanity that was lost in their original homelands. This migration, with its negative and positive aspects, will impose a new reality on Europe, just as migrations and invasions of other peoples imposed a European reality that is different from its predecessor.

Among the most important masses of immigration to which Europe was subjected was in ancient times, when the barbarian torrents coming from the east and north were pushing towards the lands of the vast Roman Empire that controlled most of the European lands, and also, parts of Asia and North Africa, and from those torrents of Germanic tribes that It migrated from the northern borders of the Roman Empire in a permanent migration movement during the fourth century, and in the face of the influx of Asian masses towards Europe from the east, the Germanic tribes headed in a reverse movement towards the European West, and prepared the contact of the Western Germanic tribes of the Goths with the Roman Empire in the west, to the other Germanic tribes to move towards the empire Roman, which has become in a state of weakness and disintegration, and the evaluation of those tribes their kingdoms in the territory of the empire.

In the paper marked the Germanic kingdoms in Western Europe, we will address through it the origins of the Germanic tribes and the composition of their society in general, and the areas to which they crawled due to the importance of this because through the process of crawling the Germans must have left a historical trace there, and the factors that allowed Germans to establish these kingdoms on the ruins of the Roman Empire Up to the decline of the East Germanic kingdoms, in contrast to the West Germanic, whose influence continued to exist on the European map until

modern times. This study aims to provide historical material for a basic stage in European history, and to refine the European composition and concepts in all respects in the epochs that followed after that, and the basis of which was the Germanic component. The idea of establishing a European Union during the twentieth century is nothing but a German project to establish a unified Germanic empire, which gives an impression of the supremacy of the Germanic component on the European continent.